لتحقيق تغيير دائم، اذهب بعيدًا معًا: 5 دروس غير متوقعة في بناء الحركات المجتمعية

كثير منا يحلم بإحداث تغيير إيجابي في مجتمعه. نبدأ بحماس، لكننا كثيرًا ما نشعر أن جهودنا الفردية صغيرة ومعزولة، كأنها قطرة في محيط. نتساءل: كيف يمكن لمبادرة صغيرة أن تنمو لتصبح حركة قوية ومستدامة؟ الإجابة قد تأتي من مصدر غير متوقع على الإطلاق: دليل إرشادي تم إعداده لمناصري حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة في أفريقيا.

هذا الدليل، الذي يهدف إلى إنشاء شبكات مجتمعية للتنمية الشاملة، يقدم رؤى عميقة تتجاوز مجاله المباشر. إنه ليس مجرد مجموعة من التعليمات، بل هو فلسفة كاملة في التنظيم المجتمعي، تقدم مبادئ يمكن لأي شخص يطمح إلى بناء حركة مؤثرة أن يتعلم منها. هذه الدروس تغير بشكل جذري فهمنا لما يعنيه "العمل الجماعي" الفعال.

في قلب هذا الدليل تكمن فكرة مركزية تلخصها حكمة أفريقية قديمة، وهي الفكرة التي تشكل أساس كل المبادئ الأخرى.

".If you want to go fast, go alone. If you want to go far, go together"

"إذا أردت أن تسير بسرعة، فاذهب وحدك. وإذا أردت أن تذهب بعيدًا، فاذهبوا معًا."

1- القوة الحقيقية ليست في "التنفيذ"، بل في "التواصل"

أول درس صادم يقدمه الدليل هو أن الشبكات المجتمعية الأكثر فعالية لا يتم تصميمها لتكون منظمات "تنفيذية" تدير المشاريع. هذا المفهوم يتعارض مع الفكرة الشائعة بأن قيمة أي مجموعة تكمن في قدرتها على "إنجاز الأمور". بدلاً من ذلك، يؤكد الدليل أن الغرض الأساسي للشبكة يكمن في أعمال ملموسة مثل تجنب ازدواجية الجهود، وخلق مسارات للإحالة تضمن عدم سقوط أي شخص من خلال الشقوق، وتوحيد الأصوات المتباينة في جوقة قوية للدفاع عن القضايا المشتركة.

إذا ظهرت فرصة لمشروع معين، لا يجب أن تتولاها الشبكة بنفسها. بدلاً من ذلك، يجب أن يتم توجيهها إلى إحدى المنظمات الأعضاء التي تمتلك البنية التحتية والخبرة اللازمة للتنفيذ. هذا يسمح للشبكة بالبقاء مركزة على هدفها الأساسي وهو "التواصل والربط". هذا التحول في التفكير قوي للغاية؛ فهو يمنع الشبكة من الغرق في تفاصيل الإدارة المالية والمتابعة، ويحررها للقيام بدور استراتيجي أكبر. هذا المبدأ يتحدى هوسنا الحديث بالمقاييس و"النتائج القابلة للقياس"، ويذكرنا بأن النظم البيئية الأكثر مرونة تُبنى على الثقة والعلاقات، وليس فقط على المشاريع.

2- ابدأ الآن: لست بحاجة إلى تسجيل رسمي لتُحدث فرقًا

من أكثر الأفكار تحريرًا في هذا الدليل هو التأكيد على أن الشبكة المجتمعية لا تحتاج إلى تسجيل رسمي لتكون فعالة. في عالم يغرق في البيروقراطية، تأتي هذه الفكرة كجرعة من الأكسجين للمبادرين المجتمعيين. يطرح الدليل هذه الفكرة التحررية بأوضح العبارات، حيث يذكر ما يلي:

"ليس من الضروري أن تكون شبكة التنمية الشاملة القائمة على المجتمع مسجلة. لا يزال بإمكانها أن تضع قواعد وهياكل دون تكبد تكاليف التسجيل أو مسؤوليات الحوكمة الأخرى."

أهمية هذه النقطة تكمن في أنها تخفض حاجز الدخول إلى العمل المجتمعي بشكل كبير. لم يعد على الأفراد المتحمسين الانتظار للحصول على الموافقات الرسمية أو جمع الأموال لتكاليف التسجيل. يمكنهم البدء فورًا في بناء الزخم، وتجميع الأفراد ذوي

التفكير المماثل، والتركيز على المهمة نفسها بدلاً من الإجراءات الإدارية. هذه الهيكلية غير الرسمية تعزز المرونة والسرعة، وتضمن أن طاقة المجموعة موجهة نحو إحداث التغيير، وليس ملء الأوراق.

3- غيّر النظام، وليس الشخص: إعادة تعريف "المشكلة" بشكل جذري

يقدم الدليل تحولاً جوهريًا في المنظور، مستمدًا من تطور فهمنا لقضايا الإعاقة. في الماضي، كانت النماذج الطبية والخيرية ترى أن "المشكلة" تكمن في الشخص ذي الإعاقة نفسه، حيث كان يُنظر إليه كحالة تحتاج إلى "إصلاح" أو كشخص يستدعي الشفقة.

في المقابل، يتبنى الدليل "النهج القائم على الحقوق"، الذي يعيد تعريف المشكلة بشكل جذري. فالمشكلة الحقيقية ليست في الفرد، بل في الحواجز التي يضعها المجتمع.

"تسلط اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة (UN CRPD) الضوء على أن الأشخاص يصبحون معاقين بسبب الحواجز المختلفة في المجتمع، وليس بسبب إعاقتهم أو اختلافهم، لأن المجتمع غير منظم ليأخذ احتياجاتهم في الاعتبار."

هذا هو الدرس الأعمق على الإطلاق. إنه ينقل المسؤولية عن الإدماج من الفرد إلى المجتمع ككل. إنه نفس التحول النموذجي المطلوب لمعالجة الفقر المنهجي، أو عدم المساواة العرقية، أو العدالة البيئية — تحويل التركيز من "إصلاح" الفرد أو العَرَض المنعزل إلى تفكيك الهياكل المجتمعية التي تخلق المشكلة في المقام الأول. عندما نكف عن محاولة "إصلاح" الأفراد ونبدأ في تفكيك الأنظمة التي تهمشهم، فإننا نبدأ العمل الحقيقي نحو مجتمع عادل للجميع.

4- حركتك القادمة قد تبدأ من مجموعة على واتساب

في عصر مليء بالبرمجيات المعقدة ومنصات إدارة المشاريع باهظة الثمن، يقدم الدليل نهجًا عمليًا ومتاحًا للجميع بشكل مدهش: ابدأ بمجموعة على واتساب. الخطوة الثالثة في دليل إنشاء شبكة على مستوى المنطقة بسيطة وواضحة: حدد 10 إلى 20 عضوًا مؤسسًا، احصل على موافقتهم، أضفهم إلى مجموعة واتساب، وحدد اختصاصات واضحة للمجموعة.

تكمن قوة هذا النهج في بساطته. من خلال الاستفادة من أداة يستخدمها الجميع بالفعل، يصبح الانضمام والمشاركة أمرًا سهلاً وفوريًا. هذا يثبت أن التنظيم المجتمعي المؤثر لا يتطلب تكنولوجيا باهظة أو تدريبًا معقدًا. يمكن أن تبدأ أقوى الحركات من خلال أبسط الأدوات، مما يجعل التغيير في متناول يد الجميع، وليس فقط أولئك الذين يملكون الموارد.

5- المثل الأفريقي الذي يغير كل شيء: اذهب بعيدًا، وليس سريعًا

في النهاية، تعود جميع الدروس السابقة لتتلاقى تحت مظلة الحكمة الأفريقية التي افتتحنا بها المقال. فلسفة "الذهاب بعيدًا معًا" هي الخيط الذي ينسج كل الدروس الأخرى في نسيج واحد متكامل. هي التي تفسر لماذا تكمن القوة الحقيقية للشبكة في التواصل وليس مجرد التنفيذ — لأن العلاقات هي التي تدوم. وهي التي تكشف لماذا لا يُعد البدء بشكل غير رسمي عيبًا، بل ميزة تسمح بالنمو الصبور والعضوي الذي تخنقه البيروقراطية. وهي التي توضح أن تغيير الأنظمة هو التزام بالرحلة الطويلة، وأن استخدام أدوات بسيطة مثل واتساب هو دعوة مفتوحة للجميع للانضمام إلى هذه الرحلة.

".If you want to go fast, go alone. If you want to go far, go together"

"إذا أردت أن تسير بسرعة، فاذهب وحدك. وإذا أردت أن تذهب بعيدًا، فاذهبوا معًا."

إن الرؤية الأساسية التي يقدمها هذا الدليل هي أن التغيير الحقيقي والمستدام لا يُبنى على تنفيذ المشاريع السريعة، بل على العمل الصبور المتمثل في ربط الناس، ومشاركة المعرفة، وبناء التحالفات. إنه يذكرنا بأن أساس أي حركة قوية ليس ما تفعله، بل كيف تربط بين أفرادها.

وهذا يتركنا أمام سؤال أخير: **ما هي الحواجز في مجتمعاتنا التي يمكننا البدء في تفكيكها، إذا اخترنا أن نذهب بعيدًا، معًا؟**